سلسلة الأعمال العلمية | 13

السَّلسَبيل
في معنى القول الثَّقيل

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

أعده

الشَّيخ الدُّكتور
شعبان مُزان شعار الأزهري

الإبرازة الأولى ١٤٤٣

أصل هذه المادة محاضرتان أُلقيتا عام ١٤٤٣ هـ

الأولى: في مسجد الزيتونة

(صيدا – لبنان)

والثانية: في مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(مخيم المية ومية – لبنان)

الصفحات الرسمية للشيخ د.شعبان شعار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١ - ٣].

الحمد لله الذي أنزل القرآن فكان بالعدل قائمًا وللإيمان ناصراً، وللكفر محاربًا، فيه خبرُ الأولين والآخرين، وحكمةُ النبيين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

١. فما أجمل وما أندى وما أحلى وما أسمى وما أعلى وما أزكى أن يكون اللقاءُ عن كتاب الله وعن كلام الله عز وجل.

هُوَ الكتابُ الذي مَن قامَ يَقْرَؤُهُ ... كَأنَّما خاطَبَ الرَّحْمَنَ بالكَلِمِ

وعنْ مَناهيه كُنْ يا صاح مُنْزَجرًا ... والأمْرُ منهُ بلا تَردادَ فالْتَزِمِ

واللهُ أكْبَرُ إذْ أعْيَتْ بلاغَتُهُ ... وحُسْنُ تَرْكيبِهِ للعُرْبِ والعَجَمِ

كمْ مُلْحِدٍ رامَ أن يُبْدِيْ مُعارَضَةً ... فعَادَ بالذُّلِ والْخُسْرانِ والرَّغَمِ

٢. أحبتي في الله: إنَّ اللهَ قد أقسم قسمًا عظيمًا، علىٰ كتابٍ كريمٍ، بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾

فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠] .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أقسم اللهُ تعالىٰ بمساقطِ النجوم في مغاربها في السماء، أنه لَقَسم لو تعلمون قَدره لعظيم.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: هذا القرآن الذي نزل علىٰ رسول الله ﷺ لعظيمُ المنافع، كثيرُ الخيرِ، غزيرُ العلمِ، في كتاب مَصُونٍ مستورٍ عن أعين الخلق، وهو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، لا يَمَسُّه إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله من الآفات والذنوب، ولا يَمَسُّه أيضًا إلا المتطهرون من الشرك والجنابة والحدث.

٣. فخصائص القرآن وأوصافُه، وعلومُه ومنافعُه؛ لا يطيق عدّها العادّون، ولا يحصيها الحاسبون؛ فهو النّور المبين، والصّراط المستقيم، والحبل المتين، من تمسّك به نجا، ومن حاد عن طريقه هلك، جعله اللّه تعالىٰ حجّةً علىٰ الخلق أجمعين، ومعجزةً باقيةً لسيّد المرسلين صلّىٰ اللّه عليه وسلّم، فحفظه الله من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

٤. ومن تأمّل يجد أنّ الأمّة قد مرت عليها عاديّاتٌ من التّتار الجاهلين، وعبّاد الصّليب الحاقدين، واليهود الغاصبين والمستعمرين المفسدين، كلهم أجمعوا علىٰ أمرٍ واحدٍ وهو النيل من كتاب اللّه

العظيم، فنالوا من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وأفسدوا في ديارهم ما أفسدوا ولكنهم عجزوا عن النّيل من كتاب اللّه عزّ وجلّ.

٥. نُبّئ ﷺ ببعض آيات القرآن ففزع أشدّ الفزع، ورجع إلىٰ بيته يرجف فؤادهُ فدخل علىٰ أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها قائلًا: «زمّلوني زمّلوني فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي» (خ:٣ م: ١٦٩).

٦. أوحى اللّه تعالى إليه أنّ الكلام الّذي سيتنزّل عليه؛ كلامٌ عظيمُ المنزلةِ، ثقيلُ الوطأةِ، كبيرُ الشّأنِ، فقال ربي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: «أي: كلامًا عظيمًا»، وكيف لا يكون قولًا ثقيلًا، وكلامًا عظيمًا؛ وهو كلام الكبير المتعال.

٧. بداية إذا أردت أن تفهم تفسير آية من كتاب الله فلا بدَّ من مراعاة أمور ثلاثة: السياق والسباق واللِّحَاق، وعليه فتأمل هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾، قال البغوي في تفسير (٨/ ٢٤٦) هذه الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «شديدًا».

قال الحسن رحمه الله: «إن الرجل ليهذّ السورة ولكن العمل بها ثقيل».

وقال قتادة رحمه الله: «ثقيلٌ -واللهِ- فرائضُه وحدودُه».

وقال مقاتل رحمه الله: «ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود».

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام».

وقال محمد بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثقيل علىٰ المنافقين».

وقال الحسين بن الفضل رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولا خفيفًا علىٰ اللسان ثقيلا في الميزان».

وقال ابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو -واللهِ- ثقيل مبارك، كما ثَقُلَ في الدنيا ثَقُلَ في الموازين يوم القيامة».

وعليه فقد اختلف المفسرون في تفسير المراد من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ والذي يظهر: -والله أعلم- أنّ القولَ الثقيلَ هو آياتُ الجهادِ التي ستنزل عند الهجرة، لأنّ التحقيق أنّ سورة المزمل من آخر ما نزل في مكةَ، والله أعلم.

فقيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها[1]؛ والاتصال بالله، والأنس بالخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ وينتظر مَنْ يدعُو بهذه الدعوة في كل جيل!.

٨. كأنَّ القول: إنَّ طريق الشرع والالتزام الذي نسير فيه طويلٌ ومضنٍ، والحمل ثقيل ولا مجال فيه للتلهي، فهو الجهاد في ميادين الضمائر والنفوس، وهو الرباط علىٰ حدود الطريق، وهو السير حتىٰ النهاية، فإما الوصول وإما الشهادة دونها فلا دنيا تُلهي ولا جاهَ يُغري، للنكوص بالعهد مع الله.

١- سفسافها: الرديء، والحقير.

٩. إنَّه الإعداد الرباني للمهمة العظيمة وللحمل الثقيل وللطريق الطويل بالوسائل الإلهية التي لا تَخيب ولا تَحيد بصاحبها عن السبيل، إنه قيام الليل الذي يصاحبه الشجنُ القرآنيُّ في الترتيل، ذلك السلاح الربانيُّ الذي لا يغلب صاحبه والزاد الذي لا يجوع حامله، فإنّ هذا الخطاب كان موجهاً لنبيّ الأمّة وحامل الرسالة حتىٰ يستطيع السير في الطريق الذي أخبره الله تعالىٰ بما فيه من جهاد ورباط، فيحتاج لإعداد نفسيٍّ كبير وحتىٰ يستطيع حمل الأمانة وتبليغ الرسالة، فهو خطاب لكل من أراد السير في هذا الطريق ولم يكن خاصاً بالنبيّ ﷺ، فالعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

فالقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر، ولكنّه ثقيل في ميزان الحقِّ، فالاستقامةُ علىٰ أمر الشرع بلا تردد ولا ارتياب ولا التفات وراء الهواتف والجواذب والمعوقات، لَثقيلٌ، يحتاج إلىٰ استعداد طويل.

١٠. والثقل المراد به في الآية يمكن إجماله فيما يلي:

أ- الثقل في التكاليف بأحكام القرآن: ويأتي تحت هذه الخصيصة أمورٌ منها: تحقيق التوحيد وما يتبعه من أحكام عقديّة وتشريعيّة، فقد أُثِرَ عن قَتادة في تفسير قوله: ﴿ثَقِيلًا﴾ قال: «ثقيل -والله؛- فرائضه وحدوده».

ب- ثقل العلم بالقرآن: أي في علومه المنبثقة منه، والتي لا يصل إلىٰ كنهها[٢] إلّا أهلُ الرسوخ في العلم، والقرآن الكريم قد حوىٰ

٢-كنهها: غاية الشيء ومبتغاه.

من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل الإحاطة به.

فكلُّ العلمِ بالقرآنِ لكنْ تقاصرَ عَنْه أفهامُ الرّجالِ

(فالقرآن المجيد هو كتاب استخلاف، والقرآن المجيد المكنون الكريم قادر على مخاطبة عالم اليوم في أعلىٰ درجات تقدُّمه، وقادر علىٰ الأخذ بيد الإنسان المعاصر لإخراجه من أزماته، وتجاوز مشكلاته؛ وذلك إذا تمكن حملة القرآن المجيد من أنْ يكتشفوا خصائص القرآن، ويكشفوا عنها للعالم، ومنها خصائص «لسان القرآن»؛ وهي خصائص كثيرة متعددة تناولها العلماء قديمًا وحديثًا، فهناك خصائصه البلاغيَّة والأدبيَّة واللغويّة والنحويّة والصرفيَّة والبيانيَّة والنظميَّة، وهذه الخصائص تتنوع وتتعدد بتعدد وتنوع زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، وهي غير قابلة للحصر؛ لأنّ القرآن مطلق والإنسان نسبيٌّ وليس من شأن النسبيّ أن يحيط بالمطلق، أو يحصر صفاته وخصائصه المطلقة، ولكل متدبّر لآيات هذا الكتاب الكريم نصيب، فكل متدبِّر يأخذ بالخصائص التي يقارب القرآن المجيد من زاوية النظر إليها.

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أراد العلم فلْيُثَوِّرِ[٣] القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين» وقال: « إذا أردتم العلم ؛ فانثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين ».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله».

٣-فليثور: أي يهيج ويثير، والمقصود يبحث عن معانيه ليتدبرها

لذا اختلف العلماء في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فذهب بعض العلماء إلىٰ أنّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: العموم من غير تخصيص: فقال الجلال السيوطي (ت: ٩١١هـ): «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز علىٰ كلِّ شيء أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلّا وفي القرآن ما يدل عليها».

ثم ذكر بعد ذلك العلوم التي اشتمل عليها القرآن فذكر من ذلك: علم عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وعيون أخبار الأمم السالفة، والسيرة النبوية، وبَدء خلق الإنسان إلىٰ موته وكيفية الموت ...

ونقل عن المرسي (ت: ٦٥٥هـ) قوله: «جَمَعَ القرآنُ علومَ الأولين والآخرين، بحيث لم يُحِط بها علماً إلا المتكلمُ به، ثم رسولُ الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم وَرِثَ عنه معظمَ ذلك ساداتُ الصحابة وأعلامُهم...» ا.هـ.

وأكثر عبارات المفسرين علىٰ أنَّ المقصود هو العموم الذي أُرِيدَ به الخصوص فيكون المراد: أنّ في القرآن بيانٌ لكل شيءٍ من أمورِ الدين أو لِمَا لمثله تجيء الشرائع...

قال الخطابيُّ في معالمِ السنن (١/ ٧): « أخبر سبحانه أنه لم يغادر شيئًا من أمر الدين لم يتضمن بيانَه الكتابُ، إلا أنَّ البيان علىٰ ضربين: بيانٍ جَلِيّ تناوله الذكر نصاً وبيانٍ خَفِيّ اشتمل عليه

معنىٰ التلاوة ضُمناً، فما كان من هذا الضرب كان تفصيل بيانه موكولاً إلىٰ النبيّ ﷺ وهو معنىٰ قوله سبحانه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فمن جمع بين الكتاب والسنة فقد استوفىٰ وجهي البيان»ا.هـ.

فوجود العلم في القرآن: إما أن يكون علىٰ وجه صريح، أو علىٰ وجه ظاهر، أو علىٰ وجه الإيماء والإشارة، أو علىٰ وجه الشمول والعموم، أو علىٰ وجه اللزوم، فالقرآن مُبيّن لكلِّ شيء، تارة يذكر الدليل علىٰ المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلىٰ الدليل ...

ج- الثقل في القدرة على إزهاق الباطل ودحضه: فالقرآن الكريم يتضمّن الحجج الدّامغة علىٰ تبديد الباطل، والبراهين الدّاحضة علىٰ إزهاق الخطأ والفساد وإتلافه، قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]

د- الثقل في التحدّي بالإتيان بمثله: إنّ من دلالات الثقل تحدّي الله عزّ وجل بكلامه الإنس والجنّ علىٰ أن يأتوا بمثله ولو تعاونوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا؛ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، فكان وما زال هذا التحدّي قائمًا إلىٰ أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

فالقرآن العظيم ثقيلٌ في التكاليف بأحكامه في أوامره ونواهيه، والعلم به، وفي قدرته علىٰ إزهاق الباطل ودحضه، والتحدّي بالإتيان

بمثله، فلا يطيق ذلك كلّه إلّا من هداه اللّه تعالىٰ ووفّقه وأعانه، وإلّا فإنّ تكاليفه ثقلت علىٰ السّماوات والأرض والجبال، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فَحَقٌّ علىٰ كلّ مسلمٍ أن يعرف قدر القرآن، فهو كلام اللّه تعالىٰ، وما عارضه معارضٌ إلّا كان مخذولًا مرذولًا[٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

١١. **ولا زال هذا القرآن عظيمًا عزيزًا ثقيلًا**، يغيظ أعداءه من الكفّار والمنافقين، ولا حيلة لهم معه، وفي القديم قال قائل المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وفي عصرنا هذا اخترع صهاينة النّصارىٰ قرآنًا سمّوه فرقانًا؛ ليحلّ محلّ كتاب اللّه تعالىٰ؛ الّذي أغاظهم أشدَّ الغيظ، فما التفت أحدٌ إلىٰ قرآنهم الذي أملاه الشّيطان عليهم، وذهبت أموالهم الّتي أنفقوها في كتابته وطباعته وتوزيعه سدًىٰ.

ولمّا ضاقوا بالقرآن ذرعًا، وأعيتهم الحيل في التّعامل معه، أوعزوا بتفسيره بما يتوافق مع أفكارهم ليفسّروا لنا القرآن تفسيرًا علمانيًا ليبراليًّا تغريبيًا، فخابوا وخسروا والحمد لله.

فكانت الهزيمة التي حاقت بهم مع القرآن وأهله، وأهلُ القرآن قوّتهم في كونهم من أهل القرآن، وضعف أعدائهم في معارضتهم له، وكتاب اللّه تعالى غالبٌ على كلّ حالٍ.

١٢. **أين نحن من تعظيم القرآن في قلوبنا؟** إنَّ صاحب القرآن مقدم علىٰ غيره، فعند الدفن يُقدم صاحبُ القرآن، وعند الإمامة يَؤم

٤-مرذولاً: خسيساً رديئاً

القومَ أقرؤهم لكتاب الله، وعند القضاء يقضي بين الناسِ الأعلمُ بكتاب الله، ففي صحيح مسلم (٨١٧) « أَنَّ نَافِعَ بنَ عبدِ الحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفَانَ، وَكانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ علَىٰ مَكَّةَ، فَقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ علَىٰ أَهْلِ الوَادِي، فَقالَ: ابْنَ أَبْزَىٰ، قالَ: وَمَنِ ابنُ أَبْزَىٰ؟ قالَ: مَوْلًىٰ مِن مَوَالِينَا، قالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًىٰ؟! قالَ: إنَّه قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّه عَالِمٌ بالفَرَائِضِ، قالَ عُمَرُ: أَمَا إنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قدْ قالَ: **إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ**».

ففي الحديث تَوليةُ المَولىٰ عَلىٰ الحر إذا كانَ فَقيهًا عالِمًا، فالعلم والقرآن يَجبُرانِ نقْصَ النَّسبِ.

يا مصطفىٰ ولأنتَ ساكنُ مُهْجتي ... رُوحي فِداكَ وكلّما مَلَكَتْ يَديْ

إنّي وقفتُ لنصرِ دينِك هِمّتَي ... وسَعادتي ألّا بغيْرِكَ أَقْتدي

لَك مُعْجِزاتٌ باهراتٌ جَمَّةٌ ... وأجلُّها القرآنُ خّيرُ مُؤيّدِ

ما حُرِّفَتْ أو غُيِّرتْ كلماتُه ... شُلَّتْ يدُ الجاني وشاهَ المُعتدي

وأنا المُحِبُّ ومهجتي لا تنثني ... عن وِجْدِها وَغرامِها بِمُحمدِ

قد لامني فيه الكفور ولو درىٰ ... نعم الغرام به لكان مساعدي

يا ربِّ صلِّ علىٰ الحبيبِ محمدٍ ... واجعلْه شافعَنا بفضلكِ في غَدِ

١٣ .أحبتي في الله القلب الذي لا تشرق عليه شمس القرآن فهو قلبٌ مخذول، والنفس التي لا تشرق عليها شمسُ الإسلام فهي نفسٌ

محرومة، ومن اعتقد أنه سيهتدي بغير هدىٰ اللهِ الذي بعث به نبيّنا ﷺ = آلَ أمرُه إلىٰ الخسران وسلك سبيلَ الشيطان، **والقلبُ الذي لا يعي شيئًا من القرآن، قلبٌ مخذول محروم مغلوبٌ عليه.**

أخرج الدارمي في مسنده بإسناد جيد (٣٣٥٢): أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، كَانَ يَقُولُ: « إِنَّ الْبَيْتَ لَيَتَّسِعُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ أَنْ لَا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ».

وروىٰ مسلم في صحيحه (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ البَقَرَةَ، وسُورَةَ آلِ عِمْرانَ، فإنَّهُما تَأْتِيانِ يَومَ القِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ كَأنَّهُما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجَّانِ عن أصْحابِهِما، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ».

فيا من أراد أنْ يستظل بذاك الظّل في يومِ الشمس والكرب والخوف! استظلّ بآيات الله تبارك وتعالى.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «من أحبَّ القرآنَ فهو يحبُّ اللهَ ورسوله»، (فعلىٰ قدر محبة الله تكونُ محبة كلامه، فمن أحبَّ محبوبًا أحبَّ حديثَه، وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالىٰ من علامة محبته). (روضة المحبين ١/ ٢٠١).

١٤. كان الصحابة يجتمعون فيأمرون أنداهم صوتًا أنْ يقرأَ شيئًا

مـن القـرآن، ويسـتمع الباقـون، وكثيـراً مـا كان يقـول عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبـي موسىٰ: ذكّرنـا ربنـا، فيقـرأ عليهـم مـا يتيسـر وهـم يسـتمعون ويتدبـرون ويتفكـرون...، **فصاحـب القلـب الحـيِّ بيـن قلبـه وبيـن معـاني القـرآن أتـمّ الاتصـال، فيجدهـا كأنهـا قـد كُتبـتْ فيـه**، فالإقبـال علـىٰ القـرآن والانتفـاع بـه تـلاوةً وتدبـراً وعمـلاً متحقـق لأصحـاب القلـوب الحيـة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

فقولـه تعالـىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ هـذا هـو المحـل القابـل، والمـراد بـه القلـب الحـيّ الّـذي يعقـل عـن الله، كمـا قـال تعالـىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يـس: ٦٩-٧٠]؛ أي حـيّ القلـب. (الفوائـد:ص٣).

وتأمـل في حـالِ سيدِنا عثمـانَ بـنِ عفـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقـرأ القـرآن في ليلـة وهـو خليفـة المسـلمين، يجلـس مـن صـلاة الفجـر فيفتـح مصحفـه حتـىٰ الظهـر، فيقـول لـه الصحابـة: لـو رَفَقْـتَ بنفسـك يـا أميـر المؤمنيـن! **وهـو مسـؤول عـن الأمّـة، فلـم يشـغله شـاغلٌ عـن القـرآن**، حتـىٰ أنّ ابـنَ عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال وهـو يقـرأ قولـه تعالـىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ بكـىٰ وقـال: «ذلـك عثمـان بـن عفـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ».

وأخـرجَ الحافِـظُ البيهقِـيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِـهِ النفيـس شُـعَبِ الإيمـان (٣/ ٥٠٩)، قـال: بـاب تعظيـم القُـرآن: قـالَ أميـرُ المُؤْمنيـن عُثمـانُ بـنُ عفّـان رضـي اللهُ عنـهُ :« **لَـوْ أَنَّ قُلُوبَنـا طَهُـرَتْ مـا شـبِعنا مِـنْ كلامِ رَبِّنـا ، وَ إِنّـي أكـرَهُ أَنْ يأتِـيَ علَـيَّ يَـومٌ لا أَنظُـرُ فيـهِ فِي المُصحَـفِ** » ... قـال ومـا

مات عُثمانُ حتّىٰ خرَّقَ[٥] مَصاحِفَ عِدَّةً لِكثرَةِ ما كانَ يُديمُ النَظَرَ فيها . » ا.هـ .

١٥ .وتدبر معي في هذه القَصص التي حصلت معي شخصًا:

القصة الأولى: ذهبتُ الهند للمرة الأولىٰ سنة ١٤٢٨هـ، لقراءة الحديث النبوي الشريف، وكان ذلك في رمضان فأدركنا الصلاة مع الأخوة الهنود في صلاة التراويح، وكانوا يقرؤون في اليوم ستة أجزاء بقراءة سريعة جدًا، وصدقًا في أحيان كثيرة ما كنت أعلم في أي سورة يقرأ من سرعته، فلما صلَّينا في اليوم الأول سألت الإمام قائلًا -وكان يتكلَّم العربية بطلاقة-: لماذا تقرؤون هذه القراءة السريعة؟ فسألني من أيّ البلاد؟ قلت له: من لبنان في بلاد الشام، فأخذني وضمني ودمعت عيناه وجلس يذكر من مآثر العرب الشيء الكثير، ثم قال لي كلمةً ينبغي لنا أن نضعها نبراسًا لنا وحلقةً في آذاننا: **أنتم العرب تفهمون القرآن أمّا نحن فلا نفهم القرآن فنحن نتعبد اللهَ عزّ وجلّ بكَثرة ما نقرأ.**

ونحن -والله المستعان- لا قرأنا ولا فهمنا إلا من رحم ربي.

القصة الثانية: من عام ٢٠٠٦م إلىٰ أواخر سنة ٢٠١٠م كنت أرىٰ يوميًا شابين من طلاب العلم الشرعي من دولة سريلانكا كانا يدرسان معنا في الأزهر الشريف في مصر، كانوا يجلسون يوميًا من بعد صلاة الفجر إلىٰ شروق الشمس يقرآن أربعة أجزاء من القرآن حفظًا بطريقة غريبة، يجلس الأول ويبدأ من أول القرآن فيقرأ

٥-خَرَّق: تلفت من كثرة الاستعمال.

-الجزء الأول والثاني يُسمِّع له، فإذا أنهىٰ الجزء الأول والثاني يَسْمَع، يبدأ الثاني فيقرأ الجزء الثاني والأول يُسمِّع له، وهكذا... فإذا أنهىٰ القراءة عكسوا القراءة حتىٰ نهاية القرآن الكريم.

إخواننا قرابة الخمس سنوات علىٰ هذه الحالة، كان هذا عهدهم مع القرآن وأنا تركتهم وهم علىٰ هذه الحالة.

القصة الثالثة: كنت قبل مدة في اسطنبول لزيارة شيخ القرَّاء هناك وأتيت له بشيء من الهدايا من لبنان، فوجدت غلامًا عمرُه ستُ سنوات يلبس جبة وعمامة ووالده بجانبه، فأعجبني -سبحان الله- المشهد فسلَّمت علىٰ الأب وعلىٰ الولد الصغير، والمفاجأة أنَّ الغلام **ابنَ الست سنوات يحفظ القرآن الكريم كاملًا**، ولا أخفيكم أنا لم أقتنع -وهذا مسجَّلٌ صوت وصورة-، فاختبرته بنفسي وسألته أكثر من سؤال وهو يجيب بكل ثقةٍ واضعًا يده في جيبه، يقرأ ولا يبالي.

سبحان الله قلت في نفسي أين نحن من هذا الغلام، نظرت إليه وقلت في نفسي: والله أنت أحق بهذه الهدايا من شيخ القراء فأعطيته إياها.

القصة الرابعة: زرت باسطنبول بعض المراكز التي تُعنىٰ بتحفيظ القرآن الكريم، ومن ضمنها مركز كبير متخصص وفق برنامج محكم فالغلام ينهي مدرسته الساعة الثانية ظهرًا فيذهب إلىٰ بيته يتناول طعام الغذاء، ثم يأتي به الأهل إلىٰ المركز من الساعة الثالثة إلىٰ الخامسة يوميًا علىٰ مدار سنتين ليس عنده عطلة إلّا

يومَ الجمعة، وخلال سنتين يتخرَّج الغلام حافظًا لكتاب الله عزّ وجلّ، بحفظٍ متقَن ليس له مثيل، وبعضُ المدارس يعفونه من سنتين دراسيتين إذا أتمّ الحفظ، ويعتبرون أنَّ حفظ القرآن الكريم ينمّي العقل أكثر مما يتعلم في المدرسة.

والسؤال كيف هي طريقة الحفظ؟ يحفظ الطالب آخر صفحة من الجزء الأول ثم ينتقل إلىٰ الجزء الثاني فيحفظ آخر صفحة منه، ثم ينتقل إلىٰ الجزء الثالث ويحفظ آخر صفحة منه، وهكذا إلىٰ نهاية المصحف، ثم بعد ذلك يحفظ الصفحة قبل الأخيرة من الجزء الأول والصفحة قبل الأخيرة من الجزء الثاني وهكذا، لمَّا يأتي للمراجعة يسمّع الصفحة قبل الأخيرة والصفحة الأخيرة وهكذا إلىٰ نهاية المصحف، إلىٰ أنْ يتمّ حفظ القرآن الكريم كاملًا علىٰ هذه الطريقة.

تأمل: قال عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَتَعَلَّمُوهُ، وَعَلِّمُوهُ أَبْنَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ عَنْهُ تُسْأَلُونَ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَكَفَىٰ بِهِ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ». (ينظر: فضائل القرآن للقاسم بن سلام رقم١٠).

١٦. أين نحن ممن سلف؟! أين شبابُ الأمّة الذين أعرضوا عن معايشة القرآن؟ إنّنا أمة لا خلود لها إلا بكتابها العظيم، فإن هجرناه وتركناه أخذتنا المبادئُ الهدامةُ، واستولتْ علينا الأممُ الحاقدة، ولذلك يقول المستشرق المجري «جولد زيهر» كلامًا مفاده: «لا يستطيع أن يُغلبَ هؤلاء العرب ما دام فيهم ثلاثة أمور: صلاة الجمعة، والقرآن، والحرمين».

إنّ هذه الأمة أمّة ريادة، توجه الناس إلىٰ الحقّ، ولقد جربنا أطوارًا من التاريخ، فكلما تمسكنا بالقرآن انتصرنا، وكلما تركناه خُذِلنا.

١٧. **فإيّاكم وهجر القرآن: لايصدنكم عن كتاب الله أحد،** أحيوه في منازلكم وأسركم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان:٣٠] **قال العلماء: هجر القرآن على خمسة أضرب:** هجر تلاوته، وهجر تدبره، وهجر العمل به، وهجر التداوي به، وهجر تحكيمه في دنيا الناس.

❁ **فهجران التلاوة؛** هو أنّ يهجره الإنسان فلا يتلوه، ولا يكون له حزبٌ يومي من القرآن، فلا يتملىٰ من أسطره، ولا يعيش مع آياته، ولا يتزود من الزاد الذي يقربه من الله، فإياك أن لا تقفل أبواب البركات في وجهك، اجعل كتاب الله في حلك وترحالك، اجعل لك ورداً يوميًا تنهل منه روحك الظَّمِأة.

فمن عاش مع القرآن زال همُّه، ورُفع قدرُه، وعَلَت درجته، ونُشرت سيرته، وَوُسّع رزقه، ويُسِّر أمره، وطاب ذكره، وبورك له في عُمُره.

❁ **وهجران التدبر؛** وهو أن يقرأ القرآن لكنه ساهٍ لاهٍ، يردده بلسانه، وقلبه في السوق والعمل، أرسل عينيه ولسانه يردِّدُ كلامًا لايفقهه، **وغفل أنّ كلَّ النورِ في تدبر النور.**

نقل الإمام النوويّ في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن ص٢٩) عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «إنّ مَنْ كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها بالنهار».

❁ **وهجران العمل؛** وهؤلاء الذين: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ [محمد:١٦]، يقرؤون القرآن ولا يتأدبون بآدابه ولا يعملون بموجبه، فهؤلاء أشبه شيءٍ بالمنافقين، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٥].

❁ **هجران التداوي؛** وهم قومٌ هجروا التداوي والرقية به، وقالوا إنها من الخزعبلات، وهؤلاء خالفوا العقل والنقل، والنبيّ ﷺ كان يستشفي بالقرآن، وإذا أراد أنْ ينام نفث ﷺ على جسمه الشريف، وقرأ بالمعوذات، ورقى ﷺ صريعًا صُرع بالجنّ فَشُفِي.

قال الإمام الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أخلاق حملة القرآن ص:٢): «القرآنُ عصمةٌ لمن اعتصم به، وحرز من النّار لمن اتبعه، ونورٌ لمن استنار به، وشفاءٌ لما في الصدور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين».

❁ **هجران التحكيم؛** وهو أكثر ما ضربت به الأمّة الإسلاميّة اليوم حيث جعلوا القرآن الكريم للقراءة دون العمل فلم يدخلوه في تحكيمهم؛ فما تحاكموا إليه، ولا نفذوا حدوده، وإنّما استبدلوه بقوانين البشر، فأهل الضلال نبذوا القرآن؛ لا يتحاكمون إليه، مجتمعين على تركه، ومختلفين فيه، وحياة الناس لا تستقر إلا بالقرآن، وإلَّا أوحشت القلوب، وأقفرت الديّار.

❁ فعَنْ أَبِي العَالِيَةِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «أَوْصِنِي»، قَالَ: «اتَّخِذْ كِتَابَ اللهِ إِمَامًا، وَارْضَ بِهِ قَاضِيًا وَحَكَمًا، فَإِنَّهُ الَّذِي اسْتَخْلَفَ فِيكُمْ رَسُولُكُمْ، شَفِيعٌ مُطَاعٌ وَشَاهِدٌ لاَ يُتَّهَمُ، فِيهِ ذِكْرُكُمْ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَخَبَرُكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ». (ينظر: السير للذّهبي ١/ ٣٩٢).

١٨ .وختامًا هذه جملة من الأقوال؛ تأملها جيداً لتعلم مدى حرص الصالحين على كتاب الله عزّ وجلّ وحسرتهم على تضييع أوقاتهم في غير القرآن الكريم:

۞ قَالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَاشْغَلُوهَا بِالْقُرْآنِ ، وَلَا تَشْغَلُوهَا بِغَيْرِهِ». (المصنّف لابن أبي شيبة برقم: ٢٩٤٢٥).

۞ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: « ليتني كنت اقتصرت علىٰ القرآن «. (العلل ومعرفة الرجال ١/ ٤٦٩) .

۞ وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لا تبلغوا ذروة هذا الأمر حتىٰ لا يكون شيء أحبّ إليكم من الله، فمَن أحبّ القرآن؛ فقد أحبّ الله، افقهوا ما يقال لكم». (شعب الإيمان ١/ ٣٦٥).

۞ وقال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وندمت علىٰ تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن». (ذيل الطبقات ٢/ ٤٠٢)

۞ وقال الضياء المقدسيّ: أوصاني شيخي إبراهيمُ بنُ عبد الواحد المقدسي لما أردت الرحلة لطلب العلم، قال لي: « أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه علىٰ قدر ما تقرأ». قال الضياء: «فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأتُ كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي». (ذيل الطبقات لابن رجب ٣ / ٢٠٥).

اللهم احفظنا بالقرآن، واشرح به صدورنا، واستعمل بالقرآن أبصارنا، وأطلق بالقرآن ألسنتنا، وأعنَّا على القيام بحقه ما أبقيتنا، اللهم عظّم رغبتنا فيه واجعله نورًا لأبصارنا وشفاءً لصدورنا وذهابًا لهمومنا وغمومنا وأحزاننا ..

اللهم زيّن به ألسنتنا وثقّل به موازيننا وارزقنا حقّ تلاوته على طاعتك آناء الليل وأطراف النّهار ..

اللهم احشرنا مع نبيّنا محمدٍ ﷺ وآله الأخيار، واعرض عليه صلاتنا وسلامنا في هذه الساعة المباركة.

اللهم إنّا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك كلمةَ الحق في الغضب والرضا، ونسألك لَذّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنةٍ مضلة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

قائمة المراجع

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
٢. المهذب من إحياء علوم الدين لصالح الشامي.
٣. أخلاق حملة القرآن للآجري.
٤. الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي.
٥. التبيان في آداب حملة القرآن للنووي.
٦. خصائص لسان القرآن الكريم، د. طه العلواني .
٧. خطبة بعنوان: (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) لإبراهيم الحقيل.
٨. روضة المحبين لابن القيم .
٩. سير أعلام النبلاء للذهبي.
١٠. شعب الإيمان للبيهقي.
١١. صحيح البخاري.
١٢. صحيح مسلم.
١٣. طبقات الحنابلة وذيله لابن رجب.
١٤. العلل ومعرفة الرجال لعبد الله بن أحمد.
١٥. فضائل القرآن للقاسم بن سلام .
١٦. فضل القرآن للقرني.
١٧. الفوائد لابن القيم.
١٨. مسند الدارمي .
١٩. المصنّف لابن أبي شيبة .
٢٠. معالم التنزيل للبغوي.
٢١. معالم السنن للخطابي
٢٢. وصايا الحسن لأهل القرآن حمزة النايلي.

الفهرس

مقدمة ٣
أقسم الله بالقرآن ٣
خصائص القرآن وأوصافه ٤
عاديات مرَّت بالأمة ٤
عظمة الكلام المنزل ٥
السياق والسباق واللحاق ٥
طريق الشرع والالتزام طويل ثقيل ٦
الإعداد الرباني للطريق ٦
المراد بالثقل في الآية ٧
تعظيم القرآن في قلوبنا ١١
القلب المخذول ١٢
حال الصحابة مع القرآن ١٣
قصص متعلقة بتعظيم القرآن ١٥
أين نحن ممن سلف؟! ١٧
إياكم وهجر القرآن ١٨
خاتمة ٢٠